العمارة العربية الإسلامية
ماضيها وحاضرها ومستقبلها

الدكتور

فريد محمود شافعي

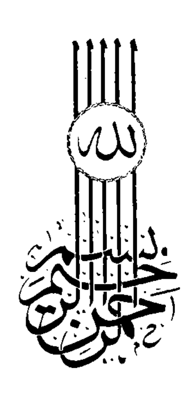
أستاذ العمارة الإسلامية، كليـة الهندسة

جامعة الملك سعود

الناشر: عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود
ص. ب ٢٤٥٤ الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م)

طبع في : شركة الطباعة العربية السعودية (المحدودة)
ص . ب ٦٤٦٣ ــ الرياض ، هاتف ٤٧٨٦٨٩٦ ، العمارية ٤٦٥٨٩٩٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

صفحة

المقدمة

تتعرض البلاد العربية والإسلامية في هذه الأيام ومنذ وقت قريب لتفاقم وتزايد انتشار نفوذ الحضارة الغربية حتى كاد أن يكتسح الدول التي تعرف بالدول النامية ، سواء تلك التي تتمتع بموارد طبيعية وثروات مرموقة ، أو المتوسطة الموارد ، أو حتى الفقيرة منها ، والتي يتمتع أغلبها في نفس الوقت بحضارات عريقة ، وهي على وجه الخصوص مجموعة البلاد العربية والإسلامية .

وكان من الطبيعي أن يتدخل ذلك النفوذ الغربي في ميدان العمارة في تلك البلاد إلى الحد الذي طغى فيه على التقاليد والأصالة العربية الإسلامية التي دامت حيَّة مزدهرة زهاء ١٤ قرناً . بل لقد وصل الأمر بأن توارت أو كادت تختفي تلك التقاليد وتلك الأصالة ، وحتى كاد الناس ينظرون إليها وكأنها راحت في ذمة التاريخ ، حيث لم يعد لها مكان في هذا العصر الذي سيطرت فيه الاتجاهات والمذاهب الغربية الحديثة على النواحي التصميمية والانشائية ، أو كأنها لن تقوم لها قائمة مرة ثانية أمام تيارات تلك الأساليب .

وقد يكون للناس بعض العذر في ذلك الظن وهم يدورون في دوامة أو دوامات أثارتها وتثيرها تلك التيارات ، والتي لم تقتصر تأثيراتها على العمارة وحسب ، بل إنها غمرت حياة العرب والمسلمين من نواح حساسة تمس أعماق تلك الحياة من ثقافية وعلمية بل ودينية ، حتى يخيل للمتأمل أن الناس في تلك الأقطار قد أصبحوا يعيشون في حالة من البلبلة والحيرة ، بل وفي دوار ، لا يدرون معه إلى أي اتجاه يتجهون . وأدت بهم هذه الحالة إلى الإستسلام والانسياق مع تلك التيارات ، سواء كان ذلك عن طواعية ورضا ، أو عن غير وعي أو اهتمام .

بل إن تلك التيارات ما تزال تشتد وتقوى وتكتسح كثيراً من محاولات الصمود أمامها ، وهي محاولات كانت فردية في معظمها ، ثم أخذت هي بدورها منذ سنوات قلائل فقط تشتد وتقوى ، وبخاصة أن المصادر الحاكمة وبخاصة في المملكة العربية السعودية قد اتجهت إلى تبني الاتجاه نحو إظهار الطابع المعماري العربي الإسلامي في المشروعات العظيمة التي انطلقت المملكة في إقامتها في سخاء وحمية ، ومنها على سبيل المثال قاعة المؤتمرات والفندق الملحق بها في كل من مكة المكرمة والرياض ، وفي مشروع مباني مجلس الوزراء ومجلس الشورى ، وكذلك جامعة الملك عبد العزيز في

جدة وفي فرعها في مكة المكرمة . وعلى الرغم من أن من كلفوا بإعدادها كانوا من كبار المعماريين والمهندسين الغربيين ، فإننا نود أن نشيد بنجاح جهود البعض منهم في وضع لمسات من ذلك الطابع ، بينما لم تنل جهود بعض آخر نصيباً كافياً من النجاح .

ومهما يكن من أمر ، فإنه من الواضح أن عدداً ليس بالقليل منهم في حاجة إلى تفهم فلسفة وروح العمارة العربية الإسلامية وخصائصها الأصيلة ، والتي لا تتمثل كما يظن البعض منهم ، ومن العرب أنفسهم ، في عناصر معمارية وزخرفية ، مثل العقود والأعمدة والمقرنصات وغيرها ، مما يعد في حكم القشور والثياب الخارجية ، بل تتمثل في حقيقتها في أعماقها أي من أطراف جذورها وفي أسسها وفي لبها وجوهرها ، وكلها نواح نبعت ونمت في البيئات العربية الإسلامية ، ونجحت في توفير كل مطالب تلك البيئات كل حسب الظروف العامة لتلك البيئات ثم الخاصة بكل منها ، والتي تتعلق بالمناخ والسياسة والاقتصاد وغيرها .

ثم أخذت تتوالى وتتعالى النداءات في البلاد العربية الإسلامية للمحافظة على ذلك الطابع الأصيل ، مما شجع زملاء من المعماريين إلى الإدلاء بآرائهم ، وبذل آخرون محاولات عملية في ذلك الموضوع .

وكان من تلك الآراء والمحاولات ، على سبيل المثال ، رأي متحمس للعودة إلى استعمال أسلوب البناء باللبن حيث كان وما يزال صالحاً للأجواء الحارة ولذوي الدخل المتواضع ، وهو رأي إن كان يوافق البيئات الريفية من قرى وتجمعات سكنية محدودة ، إلا أنه لا يمكن أن يصلح بأي حال من الأحوال للمدن الصغيرة ، ناهيك بالكبيرة والعواصم ، والتي لن يرض ذوو الدخول المتوسطة وما فوق المتوسطة بأن يشيدوا عمائرهم بذلك الأسلوب ، سواء كانت تشيد للأغراض السكنية أو التجارية ، أو التي تؤدي خدمات عامة من حكومية وترفيهية وعلمية وعلاجية وغيرها ، وكلها أنواع يتزايد الطلب على بنائها كلما نمت البلاد وتوالت عليها التطورات .

وكان من تلك المحاولات ما لجأ إليه بعض المكاتب الاستشارية الهندسية من التوصيات باستعمال بضعة عناصر معمارية تمت بالشبه لعناصر قديمة من الطراز العربي الإسلامي في بعض أجزاء المبنى الواحد من العمائر المدنية الخاصة والعامة وإدخالها ضمن تصميمات أخرى يغلب عليها طابع غربي مستحدث ، مما أنتج مزيجاً معمارياً جانبه التوفيق .

وكل ذلك فرض علينا واجباً أن ندلي بدلونا في هذا الميدان وأن نسهم فيه بقسط مما تجمع لدينا من معلومات ودراسات عن العمارة العربية الإسلامية التي كرسنا لها حياتنا وما بقي فيها من عمر ، وأن نضع مساهمتنا في إيجاز وتبسيط ما أمكن ، هادفين إلى شرح ما نعتقده عوناً على تفهم فلسفة وروح ذلك الطراز وما يتميز به من خصائص ، ثم ما يمكن أن يستخلص منه ما يصلح لأن يتمشى مع متطلبات البيئات العربية الإسلامية وتقاليدها في العصور الحاضرة والمستقبلة ، والتي لا نظن أبداً أنها ستتغير تغييراً جوهرياً على الرغم مما تتعرض له من ضغوط وإغراءات ، ولأن تتمشى في الوقت

نفسه مع المستحدثات في عالم نظريات العمارة والإنشاء والعلوم والتكنولوجيا ، وكذلك مع التيارات الثقافية والاجتماعية التي لا تتعارض مع التقاليد الإسلامية العريقة .

ونأمل أن يكون بحثنا هذا عوناً للمعماريين الغربيين والعرب على السواء الذين يناط بهم إعداد المشروعات المعمارية في البلاد العربية والإسلامية وعلى إنتاجها في القالب المعماري الذي يتفق مع اتجاهاتهم الفنية والعلمية ، ويتجلى فيه في الوقت نفسه الطابع العربي الإسلامي الصريح الواضح ، والذي لا مفر من عودته مهما قامت في سبيله من صعاب . وسيؤدي إلى عودته حتماً الشعور المتزايد والذي يقوى ويشتد مع مرور الزمن عند الشعوب العربية الإسلامية بوجوب الفكاك من الخضوع التام لتقاليد الحضارة الغربية ، وأن يقتصر الالتجاء إليها والاقتباس منها فقط بما يتفق مع البيئات المحلية في المراحل التي يمرون بها في الحاضر والمستقبل . هذا مع اعترافنا بأن ذلك ليس بالأمر اليسير ، وبخاصة مع التطورات العلمية والتكنولوجية وغيرها من الجوانب الحضارية التي تسير بتلك السرعة المذهلة التي تدير الرؤوس ، وقد توحي باليأس من إمكان الصمود أمامها . وكل ذلك يدعونا لمضاعفة الجهود لاقتباس ما يصلح لنا وترك ما عداه ، وحتى لا نضيع وتضيع جهود أسلافنا الذين بنوا حضارتنا العريقة ، في خضم تلك التيارات وتمتصنا تلك الدوامات الضارية .

ومن الجدير بالذكر أننا اتبعنا في منهج بحثنا هذا أن نجعله في قالب لمحات نبدأ بإلقائها على الماضي حيث نتتبع فيها تطورات العمارة في البلاد العربية الإسلامية منذ عصورها المبكرة وما تلاها من عصور ، وفي مراحل تتوالى في تسلسل تاريخي وتسير كل منها أفقياً لتشمل أقطار العالم الإسلامي وشعوبه واحداً بعد الآخر ، لكي نتبين الخصائص والمميزات العامة التي كانت تشترك فيها كلها ، ويظللها لواء الدين الإسلامي واللغة العربية ، ثم الخصائص والمميزات التي كان ينفرد بها القطر منها بتأثير ظروفه البيئية الخاصة ، وكل ذلك مع التركيز على أهم تلك الخصائص والعناصر والمميزات التي تصلح بل التي تجب المحافظة عليها وتطويرها لكي تتمشى مع مستحدثات العصور الحاضرة والمستقبلة ، والتي يجب الاعتماد عليها في إنتاج العمائر ذات الطابع العربي الإسلامي الواجب .

ولكي نبرهن على أن الوصول إلى ذلك الهدف ، الذي يبدو وكأنه صعب المنال ، هو في حقيقة الأمر يمكن بلوغه إذا بذل فيه ما يستحقه من جهود ، نقول إننا لكي نبرهن على ذلك فقد جئنا في القسم الأخير من اللمحات ببعض أمثلة لإنتاج معماريين غربيين تعكس ملامح وطابعاً من العمارة العربية الإسلامية ، ولكنها في رأينا لم يتعمد أصحابها إظهار ذلك الطابع وتلك الملامح إلا في أمثلة قليلة منها ، وجاء الباقي صدفة غير مقصودة .

ويستلفت النظر في تلك الأمثلة أن الأشكال والتكوينات المعمارية (Form & Structure) هي التي يتضح فيها ذلك الطابع وتلك الملامح ، ولم تلعب التفاصيل والعناصر المعمارية والزخرفية إلا أدواراً ثانوية وغالباً ما تكون قد نتجت عن غير قصد ، إذا وجدت .

ويهمنا أن نزيد من التأكيد على أن الدراسات التي يضمها هذا الكتاب ليست ملخصاً لأبحاث

بعض من عنى بالكتابة عن العمارة العربية الإسلامية ، سواء كانت سطحية أو متعمقة إلى درجة معقولة ، بل هي عصارة مبسطة من دراساتنا وأبحاثنا وتحليلاتنا مع تعليقاتنا وآرائنا عنها . كما صححنا من تلك الأبحاث بما يتفق مع الحق والمنهج العلمي السليم ، وهي نواح كثيراً ما أهملت في عدد من تلك الأبحاث . وقد هدفنا من تلك العصارة أن يفيد منها الزملاء المعماريون من المتخصصين وغيرهم ممن يرغب في الالمام بناحية هامة من الحضارة الإسلامية .

ولاتمام الفائدة أوردنا في الهوامش أهم المراجع التي تناولت الموضوعات الهامة المختلفة ، ليرجع إليها من يشاء الاستزادة من المعلومات أو لتحقيق ما جاء في أبحاثنا عنها أو للتحقق منها .

شكر وتقدير

تتمتع المملكة العربية السعودية بفترة ازدهار شاملة بفضل قيادة جلالة الملك خالد بن عبد العزيز وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز والحكومة الرشيدة التي تقوم على عناصر تمتاز بالحنكة والحكمة والقدرات والتجارب العلمية والعملية ، والتي جندت كلها لخدمة الشعب السعودي بجميع مستوياته ، ووضعت الخطط لتوفير العيش الكريم له في جميع القطاعات ، والتي نفذت ويتم تنفيذها في جدية وحزم . كما شملت الجهود العناية بضيوف المملكة من الحجاج والعاملين الذين يساهمون بتجاربهم وقدراتهم في خدمة الشعب السعودي .

وبحكم مهنتي كمعماري ، شد اهتمامي بوجه خاص قطاع العمران والبناء الذي تسير فيه الخطوات في سرعة متزايدة لا توازيها في ذلك أية خطوات أخرى في العالم كله . فقد أسعدني بوجه أخص وبحكم تخصصي في العمارة الإسلامية التي كرست لها حياتي ، ذلك الاتجاه الذي أخذ يقوى ويشتد نحو إحياء التراث المعماري الإسلامي ونحو صياغة المشاريع المعمارية التي تتطلبها نهضة البلاد في القالب والطابع الواجبين من ذلك التراث العظيم ، والذي يظن البعض خطأً أنه ما عاد له مكان في وسط التيارات والاتجاهات المعمارية والتكنولوجية الحديثة . وأرجو أن يكون بحثي الذي أعرضه في الصفحات التالية قد نجح في إثبات خطأ ذلك الظن بالتحليل العلمي والمنطقي . وقد شجعني على إعداد هذا البحث ما طلبه عدد من المكاتب الهندسية التي أسند إليها إعداد مشاريع معمارية هامة من معاونتي في توضيح وشرح الأسس والقواعد الأصيلة لذلك التراث ، حتى يمكنهم إخراج تلك المشاريع وهي تعبر عن البيئة الإسلامية وعن ذلك التراث بقدر الإمكان .

وقد وجدت زيادة في الفائدة أن أضيف إلى ما قدمته من معاونات ، هذا البحث الذي يُلقي لمحات على ماضي العمارة الإسلامية ثم على الدور الذي يمكن أن تقوم به في الوقت الحاضر ووسط الظروف التي يمر بها العالم الإسلامي وسيمر بها في المستقبل .

وأنتهز هذه الفرصة لكي أسجل شكري وامتناني على ما لقيته من رعاية وتكريم من معالي الدكتور عبد العزيز عبد الله الفدا مدير جامعة الرياض السابق ، ومن وكيلها سعادة الدكتور حمود عبد العزيز البدر ، ثم من أصحاب السعادة العمداء والوكلاء السابقين لكلية الهندسة بجامعة

الرياض التي أعمل بها منذ عام (١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م) أستاذاً لمادة العمارة الإسلامية التي تنفرد هذه الكلية بتدريسها من بين كليات الهندسة بجامعات العالم كله ، وذلك منذ أن عملت بها . وأذكر من العمداء السابقين سعادة الدكتور جعفر عبد الرحمن صباغ ، ويشغل حالياً منصب وكيل جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، ثم سعادة الدكتور صالح عبد الرحمن العذل ، ويشغل حالياً منصب وكيل جامعة الرياض للدراسات العليا والبحث العلمي ، وقد شملني بالتقدير والرعاية في أثناء عمادته لكلية الهندسة .

وأخص بالشكر العميق سعادة الدكتور طلال عبد الكريم بكر العميد السابق لكلية الهندسة ، والذي أتممت في عهده هذا البحث لما أمدني به من عون أدبي ومن تشجيع ، ثم من عون عملي من حيث استعمال الأجهزة المتوفرة بالكلية ، وكذلك على ما أحاطني به من تكريم وتقدير كان لهما أكبر الأثر على ارتفاع معنوياتي وإقبالي على البحث والتأليف .

فريد محمود شافعي

عرفــــــان

لقد استعنا بكثير من المراجع الرئيسية عن العمارة والفنون العربية الإسلامية والتي تعد قديمة إلى حد ما ، سواء العامة منها التي تشمل أقطاراً من العالم العربي الإسلامي أو التي خصصت لقطر منها ، وحصلنا منها على معلومات قيمة عاونتنا في دراساتنا وأبحاثنا وتحليلاتنا ، وذلك من ناحية ما اشتملت عليه من معلومات وآراء أو من أشكال من صور ورسومات ، وعُني مؤلفوها بعملها بأنفسهم في معظم الأحيان أو بالاستعانة بمحترفين في أحيان قليلة ، ثم بنشرها لتوضيح تلك الآراء التي يمتاز بعضها بعمق في الدراسة والتحليل والاستنتاج . ويعد الكثير من تلك الأشكال ذخيرة ثمينة للأجيال في الحاضر والمستقبل ، حيث اختفى بعض العمائر الهامة تماماً من الوجود أو تطرق إلى عدد منها ترميمات وتجديدات غيرت من معالمها .

غير أن الاقبال قد زاد في نحو السنوات العشرة الأخيرة على إعادة تصوير ونشر الكثير عن تلك العمائر القديمة بمساعدة ما هيأته وسائل التكنولوجيا الحديثة من أجهزة وعلوم في فنون وصناعات التصوير الفوتوغرافي والطباعة والنشر مما شجع المشتغلين بتلك الصناعات والفنون على إعادة النشر بالألوان الطبيعية ، والتي ما زلنا لا نعترف بأنها طبيعية تماماً ، بل فيها شيء من المبالغة . ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك الاتجاه لا شك يزيد من التشويق إلى القراءة والاطلاع وإثارة الاهتمام لدى المتخصصين وغير المتخصصين . ولما كان معظم الصور قد قام بعملها محترفون ، فقد نبَّه الكثير من الناشرين على ضرورة الحصول على إذن كتابي منهم باستخدامها في أبحاث المؤلفين والباحثين .

غير أن الكثير من المشتغلين بتاريخ العمارة والفنون قد لاحظوا أن عدداً ليس بالقليل من المراجع الحديثة ، التي اتبعت فيها الأساليب الحديثة ، قد اعتمد مؤلفوها في التشويق إلى مواد مراجعهم على الصور الملونة أكثر مما اعتمدوا على البحث والتحليل والاستنتاج العلمي العميق ، وما جعل مؤلفاتهم تبدو كمعرض لتلك الأساليب الحديثة .

ومن جهة أخرى ، فقد تولت وزارات الاعلام والسياحة وهيئات الآثار والمتاحف والهيئات العلمية في الدول العربية والإسلامية والتي تحتفظ بآثار من العمارة والفنون العربية الإسلامية ، نقول إنها قد تولت توزيع نشرات وكتيبات بل وكتب تشمل كثيراً من الصور الملونة لتلك الآثار الثمينة ،

وقام بعملها محترفون ، ويتم توزيعها بغير مقابل على الرغم من أنها تكلفت أموالا باهظة بغير شك .

فإلى أصحاب المراجع القديمة والحديثة التي انتفعنا بمعلوماتهم وبالأشكال التي نشروها وإلى وزارات الأعلام والسياحة وهيئات الآثار والمتاحف والمعاهد العلمية ، بل وإلى بعض الشركات من الخطوط الجوية والشركات التجارية وغيرها في إيران والعراق وتركيا وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية ومصر وتونس والجزائر والمغرب وأسبانيا ، نزجي إليهم الشكر والتقدير وعرفان الجميل لما أتاحوه لنا من عون لا يمكن إنكاره ، وبخاصة في الصور التي لا يمكن الاستغناء عنها في وضع البحوث الجادة عن العمارة العربية الإسلامية التي تخصصنا فيها وانقطعنا لدراستها .

هذا ، وقد كنا غاية في الحرص على ذكر المصادر التي انتفعنا منها بالصور التي احتجنا إليها ووضعناها ضمن الكتاب ، وأشرنا إلى تلك المصادر بكل أمانة في هوامش الكتاب ، كما أوردناها تفصيلاً في ثبت المراجع في نهاية فصول الكتاب مع ذكر تاريخ النشر ومكانه واسم الناشر كلما أمكن ذلك .

قائمة الأشكال